نحو المساء

« امكث معنا، لأنه نحو المساء وقد مال النهار »

(لو ٢٤: ٢٩)

عظة ألقاها الدكتور تالمدج

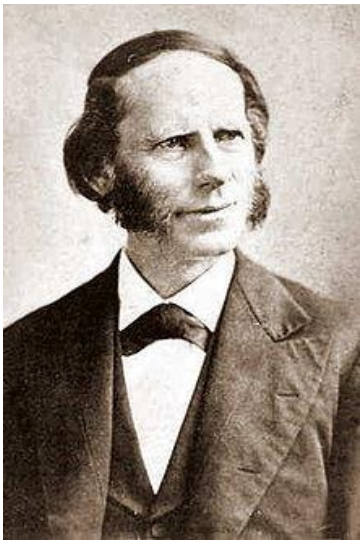

Thomas-De-Witt-Talmage (1832-1902)

قرويان أتما مهمتهما في أورشليم، خرجا من باب المدينة يضربان في طريقهما إلى عمواس، بلدة سكنهما والحزن يساورهما لأن يسوع محور فرحهما ومركز إعجابهما، مات شر ميتة ودفن. وفيما هما يسيران بوجه مكمد وقلب كسير، إذ بغريب يقابلهما. ثم يكشفان له دخيلة حالهما ومرارة قلبيهما. وهذا بدوره يخاطبهما ويفسر لهما الكتب تفسير المعلم المقتدر، فيوقظ العجب فيهما.

يمر الوقت سراعا. وهما لا يلتفتان إلى شيء في طريقهما حتى يصلا إلى دارهما. وهناك

يتوقفان لحظة أمام الباب محاولين أن يلزما الضيف بالبيت عندهما ويتسابقان في إظهار أعلى ضروب الكرم. الليل مقبل وقد تصادف هذا الضيف الشريف وحوش البر التائهة، أو ينام بلا مأوى في العراء مبتلا بندى الليل. فيلزمانه بالنزول عندهما لكي يستأنف حديثه معهما ويا له من حديث شيق! فيلبي دعوتهما الموجهة إليه بالكلمات التي اقتبسناها: «امكث معنا لأنه نحو المساء». أضيئت المصابيح ووضعت المائدة. وتبودلت عبارات الترحيب، وهما يشعران بفرح لا قبل للكلام على وصفه لحضور هذا الضيف. فيبارك الخبز ويقدم لكل منهما قطعة. وبغتة، وبقوة كاسحة تبرق على التلميذين حقيقة شخصية «إنه الرب» وفيما هما جالسين يتطلعان إلى جسد يسوع القائم من الأموات حابسين أنفاسهما، إذا به يختفي وينقطع الحديث لأنه مضى عنهما. قد يكون الوقت لكثيرين منا هو يوم النجاح المشرق حيث لا تقف سحابة في سمائنا، ولا نسمع صوت ورقة مندفعة في الغابة ولا نحس زمهريراً في الجو. أجل، إن الحال لا يدوم على هذا المنوال طويلاً. فليس من الحصافة أن نتوقع دوام يوم المسرة. إذ لابد لميزان الشمس أن يميل في الأفق وتمتد الظلال. وربما وأنا أتحدث إليكم يكون الكثيرون منا الوقت لهم نحو المساء.

(١) للبعض الوقت نحو مساء الشيخوخة. فهم قد اجتازوا دائرة خط الزوال. فأصبحوا لا يقوون على حمل ما اعتادوا أن يحملوه، ولا يمشون برشاقة الشباب كما كانوا يمشون. ولا يقرأون بعيونهم مجردة الآن كما كانوا يقرأون ولا يفلتون من أيدي المرض القاسية. لقد فقدوا الشهية للملذات، وصاروا ينظرون للحياة الآن نظرة متواضعة، ويقفون مذهولين لسرعة مرور السنين. فيقولون انظروا كيف كنا أطفالا من وقت قليل. لقد وصلوا إلى قمة الجبل ثم بدأوا ينزلون. فالتبدل ظاهر في صحتهم ونظرتهم ومشيتهم وحياتهم ووجوههم وتأملاتهم وهذه كلها تنبئهم أنه نحو المساء. الحاجة الماسة لهؤلاء أن يمكث معهم يسوع. لأنه إذا تقدم إنسان نحو الشيخوخة بلا رجاء يمسك حياته الواهنة، فإنما هو يتقدم نحو الظلام الدامس. وحيثما نخطو

نحو الجانب الآخر من الجبل ونرى السفح نازلا لغاية حافة النهر البارد فنحن في حاجة لأن نرى شخصا بالقرب منا يمد يد المعونة لعبوره. وحينما يفقد البصر قوته للاستجلاء نحتاج إلى الإيمان الذي يكشف الظلمة. وحيثما يخوننا السمع نحتاج إلى النبرات الواضحة لذلك الصوت الذي قطع صمت الأعماق قديما بألحان الرحمة، وحينما تحشد أرباب فؤوس الموت لتقطع غابات القوة والجمال حولنا، وإذا بنا نترك لوحشيتنا نحتاج إلى حمامة النعمة لكي تصدح بتغاريدها على فروعنا، وحينما تكتنف سبيلنا الظلال ونحس بأن النهار قارب النهاية، نحتاج أن نستعطف يسوع الفائض قوة وإحسانا بنبرات القرويين: «امكث معنا لأنه نحو المساء»

(٢) ينطبق هذا المطلب أيضا على أولئك الذين اقتربوا من ساعة التجربة القائمة. لا يوجد أسهل من أن نظهر بمظهر الوداعة حينما تجري الأمور وفق المرام، أو بمظهر التواضع حينما لا يقف في وجوهنا مقاوم. أو بمظهر التسامح حينما لا يسيء إلينا أحد، أو بمظهر الأمانة حينما لا يجربنا شيطان الاختلاس. أجل. لقد شعرت بوطأة التجربة وقسوتها حينما اهتزت نفسك وتلوت تحت نيرها. حينئذاك شعرت بأن الشيطان يجد في أثرك. ورأيت فضائلك المسيحية راجعة القهقرى - وأوجست خيفة أن تفشل في الصراع الرهيب مع الخطية وتخشى أن تطرح في التراب. لقد تكاثفت الظلمة وأول طلائع الليل بانت. وفي وسط فزع نفسك. وفي وسط التدابير الجهنمية. وفي وسط هياج الرغائب وثورة التجارب، شعرت بتأكيد يشيع الرهبة في نفسك أنه نحو المساء. بيد أنه في ساعة التجربة أنت محتاج أن تطلب من يسوع أن يمكث معك. لأنه يقدر أن يرد المارد الجبار على أعقابه خاسئا وقد كاد يبتلعك. ويقدر أن يضع خزامة في أنف الخطية وقد كادت تدوس بسنابكها. ويقدر أن يحدد الفأس التي تشدخ رأس النجاسة الجودة. قل لي من الذي عضد بولس ليزعزع قلب فيلكس الموصد بأبواب نحاسية؟ ومن ذا الذي أعانه ليقف على ظهر السفينة وقفة الملاح الماهر وكادت تبتلعها أمواج البحر الأبيض المتوسط؟ ومن الذي شدد ذراع الشهداء ليقفوا وقفة الأبطال الصناديد لا تلين لهم قناة. وقد كان يكفي أن يفوهوا

بكلمة لكي يُحلوا من حبال المشنقة، أو ينجو من عذاب النار الملتهبة؟ هناك لما انسدلت ستائر ليل النفس، وأقبلت جحافل الظلمة على هوادج الهلاك - من الذي وهب النفس عونا وقوة ؟ من الذي منح القلب طمأنينة واستقراراً ؟ من الذي فك قيود النفس من رباط الجحيم وأبطل قوة أرواح الشر؟ هو ذلك الذي استجاب لداعى تلميذى عمواس «امكث معنا لأنه نحو المساء»..

مرة هوجمت إحدى القلاع في فرنسا فاستولى العدو المهاجم على الاستحكامات الخارجية قبيل الغروب وحط رحاله مفكراً أن أمامه مهمة سهلة في الصباح فلا تلبث الحامية أن تسلم لكن الحامية انسحبت بواسطة سلم خلفية توصل إلى داخل البلاد. وفي الصباح كرر الجيش المهاجم لكن وجد أن الحامية فوتت عليه غرضه في وقوعها أسيرة. ونحن حينما تهاجمنا التجارب توجد سلم سرية بها يمكننا أن ننجو، لأن الله لا يدعنا نجرب فوق ما نستطيع أن نحتمل بل يعطي مع التجربة المنفذ.

(٣) ينطبق هذا المطلب على أولئك الذين تنتظرهم أحزان الحياة. من أكبر الحماقات التي أصابت عالمنا افتراض متاعب لا وجود لها إلا في مخيلتنا لكن لا شك أنه توجد أحوال تهاجمنا التجارب وبذا فنحن في حاجة إلى استعداد خاص لوقوعها. فمثلا نرى أن أحد أولادنا نال مكانة خاصة عندنا، فصياحه يثير في نفوسنا الإشفاق، وهو يحتل في أفكارنا أسمى مكانة، ونوليه من العناية أكبر قسط. ذلك ليس لأنه أصبح في نظرنا أغلى من الآخرين. كلا بل لأنه مريض. فإذا نظرنا إلى وجنته أو عينه أو مشيته تبين لنا أن أوراق الزهرة قاربت أن تنتثر. وأكبر عناية تسديها الممرضات. وأكبر جهد يبذله الأطباء لا يأتي بجدوى، فيضعف النبض. ويصفر الوجه، وتتئد المشية. وتنقطع ضحكة الطفولة المرحة. لا تعود تسمع جلبة أفراحه في الصالة أو في الحجرة المجاورة. وتقف السحابة القاتمة فوق سريره. ويحس قلبك بالمستقبل المفجع متيقنا أن الشمس غاربة والليل يجر أذياله.

لقد طال سرورك في جو العناية الصافي، في سماء امك ولقد بذلت كل ما في طاقتك لكي تزيد أسباب سعادتها في أخريات حياتها. وما أسرع ما كنت تركض عند كل إشارة منها لقضاء حاجة لها. ومجرد وجودها كان بركة دائمة لأهل البيت. لكن البستاني تطلع بلهفة إلى ثمر الحديقة الناضج وأصبحت نفسها البارة ثمرة دانية القطوف في نظر السماء. وها هي الأبواب على وشك الافتتاح لدخولها. أجل إن نفسك تغوص في داخلك عند مجرد التفكير في الفراق. ولا تحتمل أن تفكر في أنك سريع ستطلب لتلقي النظرة الأخيرة على وجهها الذي ما برح يفيض عليك حنان لا يعتريه التبدل. لكنك صرت أمام حياة في جزر متراجع. وعما قليل يطويها القبر عن عينيك. وها أنت تحس بالسكوت يخيم عليك. وأنت جالس مثقل القلب حزين النفس، وها النور يتناقص رويدا رويدا في الأفق والهواء يميل إلى البرودة والوقت نحو المساء.

ثم كنت تتمتع بوفرة المال ورغد العيش. وما شكوت من حاجة لأنك كنت تتبين من كشف الميزانية أنك معدود من رجال المال البارزين. لكن ما كنت تستبعد حدوثه جاء عليك. وها أنت متروك حتي أن خير صديق لك خذلك. والأزمة التي اجتاحت الدولة بعثرت كل أموالك وربما تؤدي اليوم عملك غير عارف إلى أين يؤدي بك؟.. وخوف ينازعك من أن تدور عليك الدورة القادمة في العجلة التجارية فتخر ساقطا. وشيء يحدثك أنك لا محالة نازل. وبهولك ما ستقرع به أسماع أصدقائك من أنباء نكبتك ثم تقف في حيرة من أمر أولادك وماذا يكون مصيرهم حينما تقعدهم عن الذهاب إلى المدرسة؟ ثم تتفكر في مكتبتك وهل تتحمل بيعها؟

وهل يسهل عليك أن تنتقل من منزلك الحالي إلى منزل أرخص؟ لقد احتشدت بلايا الحياة عليك وتقف مبهوت ماذا وها السماء حتى تكسوها جلابيب الظلمة هكذا؟ إنه نحو المساء.

إن البلية كصيدلي يقدم إليك جرعات بمقدار ففيها المر والحامض والمقرف لكن لابد لك من تناولها. إن البلية تصير حزمة من الأحمال ولابد لك من صرة منها. لا يوجد حذاء مهما كان متينا إلا وتنفذ منه شوكه إلى رجلك. ولا يوجد صوت مهما كان عذبا إلا ويصمت وراء دهاليز

القبور. وفي سرعة القلب الذي يشبه وشيعة الحائك لابد من أن ينقطع أحد خيوطه. وبعد قليل ستنتهي الرحلة من أورشليم إلى عمواس .

والكتاب والعقل والمشاهدات تردد بنبرات قوية مسموعة إن الوقت نحو المساء. فما أسعدنا لما يمكث يسوع معنا حينئذاك؛ لأنه يمزج الحلاوة في الكأس المرير. وينتزع الشوكة الحادة. ويمسح الدمعة المترقرقة. ويسكت العاصفة الثائرة. ويهديء روع النفس الهاربة للالتجاء إليه. فلتجنح ظلمة الليل، وتثر زوابع اوركليدون على سطح البحر، ويقصف الرعد فبعد قليل تسود الطمأنينة. المسيح في السفينة ليلقي الطمأنينة في قلوب أحبائه، وهو راكب أعالي البحر ليسكت عجيجه. وهو في القبر ليبدد ظلمته، وفي السماء ليوضح معالم طريقها فيا نعم الصحبة! ذراعه تطوقك، ونعمته تعزيك، ونوره يفرحك. وذبيحته تحررك. ومجده يختلب لبك. فإذا رفرفت أجنحة الثروة الأرضية وطارت يصبح هو ميراثك الذي لا يتدنس وإذا رحل أصدقاؤك إلي العالم الآخر يبقى هو قيامتهم. يظل هو معنا أبدا لا يفارقنا في صبح فرحنا، أو في ظهيرة نجاحنا. كما أنه لا يتخلى عنا عندما يتجهم وجه السماء ويكفهر الأفق ويصير الوقت نحو المساء. أرهف سمعك فتسمع صيحة النصرة في قتال بولس ونضاله مع آخر موقعة البلايا! ثم اسمع أنشودة النار يتغني بها (لاتيمر)! الشهيد! ثم تطلع إلى المجد الذي قوض السجن. وملا الأرض والسماء، بجلجلة سلاسل الاستبداد المتحطمة، ثم رد بصرك مرة أخرى إلى أولئك الذين عالجوا أمراضهم بوصفات بشرية، مفتكرين أن يشفوا (الغنغرينا) بلزقة سطحية، ويوقفوا طاعون الامبراطوريات المحتضرة بشعوذات حكمة أرضية.

لا شيء يتكلم بالسلام إلى نفسك. ولا شيء يرفع عنك حملك الذي أنقض ظهرك. ولا شيء يكسر أعداءك الروحيين، ولا شيء يفتح عينيك لترى خيل ومركبات الخلاص التي ملأت الجبل حولك. إلا صوت ذاك الذي حل في عمواس تلك الليلة.

(٤) نتبين من الآية أيضا اقترابنا من ليل الممات. كثيرون يقولون بفكرة عيشتنا كما لو كانت لحظتنا الحاضرة هي أخر لحظات حياتنا. فأجيب أنه يجب علينا أن نستعد للموت دائما لكن هذا ليس معناه ألا نفكر في شـــيء غير الموت. لأنه توجد واجبات تتطلب انتباهنا. لأنه حينما يبيع الإنسان بضاعة فشغله هو أن يفكر في الصفقة التي بين يديه. وحينما يقف المحامي أمام محكمة فواجبه أن يفكر في قضـية من وكله. وحينما يجلس الكاتب ليجمع كشـف حسـاباته فواجبه أن بحصـــر فكره في خانات أرقامه. فمن تمتليء حياته بأفكار الموت ليس إلا يظل أبعد ما يكون عن طراز المسـيحية الحقيقية. أعرف رجلا اعتاد أن يقول دائما عندما يأتي الليل ويذهب للنوم «أود أن أموت قبلما يطلع الصبح». والآن هو كافر.

لكن توجد أحوال يمكننا بل يجب علينا أن نفكر في تلك اللحظة الرهيبة التي تودع النفس فيها الزمن وتسـتقبل الأبد. ولنعلم أنه لابد من سـيرنا في هذا السـبيل. ولا نؤمَل أن تجد دروبا أو منعطفات أو حوارى تبعدك عن ســكة الموت. إذ لا مفر منه. فيا ترى هل هو حادث مفزع ينقض علينا انقضاض الصاعقة أم هو انتقال سعيد؟؟ قد يمد الأصدقاء أيديهم ليتشبثوا ببقائنا لكن لا تستطيع الرغبة من جانبهم منعنا. وقد يبدرون الذهب بالنضار لكن الموت لا يقبل أجرة، لأن الأنفاس تتراجع والعيون تغتمض والقلب يســكت. قد توشـــي الوســادة بأغلى الطنافس وأنفس الحرائر فماذا يغني الموت من السـتائر؟ وقد تعلق في الحجرة أثمن أعمال الفن ولكن ماذا يغني الموت من صور؟ وقد يمتليء البيت من بكاء اليتامى والأرامل لكن ماذا يغني الموت من بكاء؟

لكن من منا يريد البقاء هنا إلى الأبد؟ صـــحيح أني أحب أن أنظر إلى الســحب تتهادى في قبة الهواء، وأن أسـبح في زرقة السـماء لكن مع هذا أتحين اليوم الذي فيه تطوى السـماء. كدرج ملتف. وأرى سماء جديدة أعظم وأعلى وأمجد. لا شك أنك ترغب أن تستبدل هذا الجسد فريسة الأوجاع والضعف والأمراض، الذي يعرج لرضة حجر، أو يتلوى لوخز شوكة أو يتلظى بنار الحمى، ألا تريد أن تستبدله بجسد لا يفنى. وعين لا تحسر أمام أبواب اليشب. والعرش الأبيض

العظيم؟ لكن بين الحادثين ساعة لا أقلل من خطورتها. نعم أنا لا أشك في شجاعتك لكن أنبئك أنك في حاجة إلى ما هو أكثر من ساعد مفتول العضد. وما هو أعلى من نبل القصد، وما هو أقوى من سيف صقيل الحد. لما تأتي إلى الموقعة الأخيرة. فأنت في حاجة إلي رداء هو أفضل من كل ما حواه خزانة ثيابك كي يهبك دفئا في ذلك اليوم الزمهرير. إن الأحوال لا تجعل كبير فرق. بل لا تجعل فرقة. قد يكون يوم رحيلك يوم صحو أو تكون ليلة ليلاء تنعب فيها البوم على أشجار الغابة. قد يكون الوقت في فصل الربيع تنطلق فيه روحك بين الزهور والرياحين وتنشر كروم التفاح طريقك بأريج عطرها، أو قد يكون خريفا تضطرم فيه الغابة بنار السَّنَة المتقهقرة. وقد يكون شتاء إتشحت فيه الأرض بثوب من الثلج وشيعت الطبيعة في جنازة فخمة. أو قد يكون يوم رحيلك وزوجتك مطبقة على يدك. أو تكون غريبا في فندق لا يقف بجانبك في اللحظات الأخيرة إلا خادم أمين، أو يكون في حادثة قطار خرج عن الشريط فترى متحطما

لست أعلم الوقت ولا الحالة لكني أعلم أن أيام حياتنا تتناقص كل يوم و سيأتي وقت لا يكون في أجلنا فسحة إلا عشرة أيام ثم تصبح تسعة فثمانية فسبعة فستة فخمسة فأربعة فثلاثة فاثنين فواحد. ثم لا تلبث أن تصير عشر ساعات فثلاثة فاثنتين فواحدة. ثم لا تلبث أن تصير دقائق خمسة فأربعة فثلاثة فاثنتين فواحدة. ثم لا تلبث أن تصير مسألة ثوان: أربعة فثلاثة فواحدة ثم تذهب. هنا يختم فصل الحياة، ويطوى الكتاب فتهدأ حركات الجسم ، وتستريح الرجلان من تعب السفر، واليدان عن حركة العمل، فلا كلمة على الشفة ولا نسمة تتردد في الأنف، تصمت الأعصاب وتكف الرئتان عن وظيفتهما وينعقد اللسان. نضع السماعة على الصدر فلا نسمع حسا. ونضع البوق على الأذن ولكن أين المجيب؟ لا حركة ولا نبضة ولا حياة. بل هناك صمت مطبق. ماذا يكون حالك يا تلميذ الرب إذا قاربت شمس الحياة من الانحدار وراء الأفق؟

يسوع هو يوم ربيعك المشرق، والصباح الذي لا مساء له. وماذا إذا تداعى بنيان بيتك الأرضي؟ يسوع قد أعد لك بيت قصور مجد. وماذا إذا هجم الظلام عليك؟ يسوع نور الأرض

والسماء، هو المرساة الثابتة وهو النور المشرق، وهو النبع الذي لا ينضب معينه، وهو النجم المتألق في ظلمة ليلك الدامس.

ها أنت قاربت تستريح من تعييرات المعيرين، وسخرية المستهزئين. لا تعود تسمع نعتهم لك بالألقاب النابية، ولا تعود تراهم يحولون صلاحك إلى تقولات وتخرصات، ولا تعود تسمعهم يتغامزون على سمعتك. لأن متاعب الأرض ستنتهي إلى سعادة لأنه نحو المساء لا يكون هناك فراق بعد ولا تسكب عبرات قلبك الكسير لأن قلبك الدامي سيعصب ودموعك المترقرقة ستمسح والأحزان لا توجد لأنه نحو المساء.

سيأتى الموت عذب كالكري يعقد أجفان الطفل أو كساعة المساء ينطلق فيها العامل المنهوك القوي ليستريح. وستوشي السماء شمس الغروب بذهبها الوهاج. وتضحي كل سحابة مزموراً من نار - وكل بحيرة مرأة من بلور. فتتجلى الغابة ويرقى الضباب سلم الجو. أصدقاؤك يعلنون الخبر، ونبضك يقرع الجرس، وصحوتك تردد النغمة وشفتاك تهمس النبأ: «إنه نحو المساء».

الرب يستخدم هذه العظة لمجد اسمه ونكون مستعدين للحياة الأبدية